حِبر أبيَض
WHITE INK

د. عبدالحق الصنايبي

العثمانيون والطباعة..
حرام على المسلمين حلال على اليهود والمسيحيي

الطباعــة (أو إعادة النســخ) ســيكون لها دور ثوري في نشــر الكتب والعلوم، وتســهيل المراســلات والأخبار، وتعميم العلــم والمعلومة، وإيصالها إلى أقاصي الأقطــار، ولقد كان للألمان السبق في هذا المجال منذ صناعة أول آلة للطباعة على يد يوهان غوتنبرغ عام 1440م، لتتطور بعد ذلك بالتزامن مع تطوُّر العلوم والتقنيات، ولتكون اليوم إحدى الاختراعات العادية التي لا يكلف المرء نفسه عناءَ البحث في أصولها أو جذورها.

إن الأمانة التاريخية والعلمية تجعلنا نعترف بأن بعض المســلمين لم يتعامَلوا دائمًا مع التكنولوجيا بمقارَبة إيجابية كان مــن الممكن أن تجعلهم في مصاف الدول التي تقود العالم حاليًّا، وبدعــوى الحرص والتحوط تجنَّبوا الاحتــكاك ببعض العلوم؛ مخافةَ أن يمس ذلك قدســية النص الديني وعذرية النصوص الشرعية.

وارتباطًا بنقطة البحث تعامَل ســلاطين الدولة العثمانية بنوع من التوجس الذي بلغ حد الرعــب مع آلة الطباعة، وهو ما دفعهم إلى تحريم اســتعمالها أو تداولها، وهــو ما أثَّر على التقدم العلمــي في دولتهم، وأيضًا في المناطق العربية التي تحمَّلــت ثمن هذه الجريرة التي ارتكبها حكام الدولة العثمانية.

وتذهب بعض الأقلام إلى أن ســلاطين الدولة العثمانية كانوا يعلمون بأن تاريخهم تشوبه مجموعة من الشــوائب، وهو ما جعلهم يســتميتون في حماية الســلطة من وعي الشــعوب، وهنا أجرمت الدولة حين اعتبرت بأن الفقر والجهل هما أهم أركان استقرار واستمرار السلطنة العثمانية.

في هذا السياق أصدر الســلطان العثماني بايزيد الثاني سنة 1485م فرمانًا يُحرم الطباعة على رعاياه المســلمين، وبالمقابل سمح بذلك للمسيحيين واليهود شريطة عدم استعمال الحروف العربية في الطباعة.

إن اســتغلال منصة الفتوى الدينية من أجل مآرب الســلطان والحكم، يؤكد بأن سلاطين الدولــة العثمانية كانوا دائمًا يســتغلُّون المُعطَــى الديني من أجل أهداف السياســة، وهو ما دفع السلطان العثماني مراد الثالث ســنة 1588م إلى الضغط من أجل استصدار فتوى بتحريم الطباعة على الرعايا المسلمين واستثناء غيرهم.

ومهما كانت النقاشات وتبادُل التبريرات حول تحريم الطباعة داخل الدولة العثمانية، فإن ذلك أثَّر على الدول العربية التي شــملتها الفتوى، وهنا يقول د. عبد الرزاق محمد الدليمي: "وقد تأخَّر العالم العربي في معرفة الطباعة بطرقها المختلفة؛ لعدة أسباب، في مقدمتها الحصار الذي فرضه العثمانيــون علــى العالم العربي بشــكل فرض عليه العزلة لســنوات طويلة، الأمــر الذي انعكس بالســلب على مختلف جوانــب الحياة في العالم العربي، فسَــادَ التخلف والجهــل، فضلًا عن عدم اهتمــام وإيمــان العثمانيين أنفســهم بدخول الطباعــة وأهميتها لنهضة الشــعوب، خاصة بعد المرسوم العثماني الذي اعتبر الطباعة "رجسًا من عمل الشيطان".

ويبدو أن حرمان العالم العربي من الطباعة قد انضاف إلى مسلســل الإهمال والتهميش الذي أصاب محيط الدولة العثمانية، وجعله يقبع في مســتنقعات الجهل والتخلف والحرمان، وهو ما يعتبر في نظرنا إجرامًا في حق هذه المناطق التي شــهد لها التاريخ بالســبق في مجال النســخ التقليدي، وتصدير العلوم إلى جميع بقاع الدنيا من الشــرق الإسلامي إلى غربه.

لقد برَّر ســلاطين الدولة العثمانية تحريم الطباعة بضرورات الحفاظ على ســلامة وصحة النــص القرآني، وهو ما يصطدم مع حقيقة دوافع المنع، هذا المعطى دفع بعض المؤرخين إلى الرد على هــذا الادعاء بالقول: "لو كانت الحجة خوفًا من تحريف القرآن الكريم، كما أشــاعوا، لكان اقتصر الأمر على استبعاد طباعة القرآن الكريم، لا أن يطال المنع الكتب الدينية، أو على الأقل لا يطال المنع كتب المعــارف الدنيوية، ككتــب الطب والرياضيات والعلــوم الأخرى، فذلك من شــأنه أن يجعلها متوفــرة وأرخص مقارنــةً بالكتب المخطوطة، لكــن المنع كان خوفًا من أن تحــرض العامة وأبناء الفقراء أن تتعلَّم وتطَّلع على ما لدى الشــعوب الأخرى بخط عربي. (حليمة مظفر "تحريم المطبعة باستثناء اليهود.. جريمة العثمانية").

ويمكــن القــول بأن منــع الطباعة فــي قبل الدولــة العثمانيــة وأطرافها قــد أثَّر على الإمبراطوريــة، ومنعها من أســباب التطــور والارتقاء في العلــوم العســكرية والصناعية وتطوير المنظومة الاقتصادية، وبســبب هذا التشــدُّد "المُســيّس" بقي العثمانيون متخلفين مقارنةً مع الغرب الذين امتلكوا وســائل القضاء على العثمانيين وبداية زوال ملكهم منذ القرن 19م.

لقد ابتُلي العالم الإسلامي بخطرَين أساسِــيَّين ساهَمَا في تأخُّر مؤشرات العلم والتنمية في مجتمعاتنا الإســلامية؛ الخطر الأول مرتبط ببعض الأنظمة الشــمولية، التــي رأت في التفقير والجهل مفاتيح أساســية في عمليــة الضبط الاجتماعي والسياســي، وهو ما تعبِّــر عنه المقولة المأثورة "جَوع كلبك يتبعك".

والخطــر الثاني هو صنيعة أهل التزمُّت والغلو الذيــن اعتبروا كل ما يأتي من الغرب هو من عمل الشــيطان الذي يجب الابتعاد عنه، بل وهناك مَن رفــض قراءة الكتب والمؤلَّفات العلمية والفلســفية بمبرر "حسبنا كتاب الله وسُنَّة رسوله"، وما تواتَرَ عن السلف الأول من المسلمين، وهو في نظرنا عين الإفلاس وقمَّة الجهل بعظمة الإســلام الــذي جعل العقل مناط التكليف، ولذلك قال المولى عز وجل في محكم التنزيل {الرَّحْمَنُ فَاسْــأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [الفرقان: 59] صدق الله العظيم.

إن من أفتــوا بتحريم الطباعة والتلغراف والراديو وقــراءة الكتب بمبرر التحوط والاكتفاء بما تحصَّل من علوم مَن ســبقونا، كانوا سببًا في إيقاف الزمن لقرون وكأنهم ينعون الأمة ويحجرون على العقل المســلم، والحق والصواب أنه لكل زمن رجاله، وتنشأ في الحياة مسائل ونوازل لم توجد من قبل، وللأسف فإن هذا الغُلُوَّ قد كان سببًا في مجموعة من المواجهات التي ذهبت بأرواح عزيزة، وكان ســببها فهمًا شــاذًّا للنص الديني الذي أكَّد أن العلم والمعرفة هــي مفاتيح فهم علوم الأرض والســماوات، مصداقًا لقوله تعالى: {يَا مَعْشَــرَ الْجِنِ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْــتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُــذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: 33] صدق الله العظيم.